الفصل الثالث

سوسيولوجيا الفقر الحضري

أولا: سوسيولوجيا الفقر الحضري

ثانيا: الفقراء العاملون بين الاستقلالية والتبعية

ثالثا: التحضر وأزمة الفقراء.

الفصل الثالث

سوسيولوجيا الفقر الحضري

يحاول الكثير من الباحثين والمنظرين في علم الاجتماع الاستفادة من انساق النظرية المختلفة في حل العديد من مشكلات مجتمعاتهم، وطالما أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يعيش عالة على التقدم الأجنبي، فإنه يتحتم علينا أن نكيفه لواقعنا، ونحاول أن نكشف المنطق الحقيقي الذي يستتر خلف هذا الواقع، بغرض فهمه وتحديد مساراته المستقبلية.

وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال، إلا إذا فهمنا ماضينا فهما واعيا، وأدركنا حاضرنا بكل أبعاده ومتغيراته[1]. وهذا التصور يدفعنا للبحث عن أيجاد و بلورة أطر تصورية منظمة حول واقعنا الاجتماعي، والمساهمة في تطوير الاتجاهات النظرية التي تعيش حالة التشكل والبحث عن تحديد الهوية والملامح، كما هو الحال في الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع، خاصة علم الاجتماع الراديكالي الذي تشكل الثورة الجزائرية إحدى روافده الأساسية، أو الكشف عن مفهومات سوسيولوجية تساعدنا على فهم البناء الاجتماعي [2] لمجتمعاتنا العربية التي تتميز بخصوصياتها التاريخية.

---

[1] حامد عبد الله ربيع، مقدمة في العولم السلوكية، دار الفكر العربي، القاهرة ،1972، ص7-13.

[2] بوتومور، علم الاجتماع و النقد الاجتماعي (ترجمة محمد الجوهري و آخرون) ، دار المعارف، القاهرة 1981.

روافده الأساسية، أو الكشف عن مفهومات سوسيولوجية تساعدنا على فهم البناء الاجتماعي [2] لمجتمعاتنا العربية التي تتميز بخصوصياتها التاريخية.

ورغم استمرارية النظرية الماركسية والبنائية الوظيفية في السيطرة على النظرية الاجتماعية، إلا أنه يلاحظ ظهور الكثير من التيارات النقدية والبدائل السوسيولوجية التي بدأت تعيد النظر في القضايا الكلاسيكية، مما يسمح لعلماء الاجتماع في البلدان النامية بمحاولة وضع بناء نظري جديد يتماشى وواقع هذه البلدان المتغير باستمرار. وهذا ممكن بحكم وظيفتهم والدور المنوط بهم كعلماء اجتماع يؤمنون بالفهم الواعي للمعتقدات والممارسات السلوكية، ولعوامل التغير والاستمرار في المجتمع ماضيا وحاضرا، ومن ثم يستطيعون توقع الظروف والأوضاع المجتمعية بشكل منطقي.

وأول ما يمكن تسجيله في هذا المجال ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن تعقيدات المجتمع العربي لا تسمح لمنظريه الاجتماعيين صياغة نظرية اجتماعية تعكس واقعا بنائيا بما يغلف هذا الواقع من تيارات ايديولوجية، ولكن لابد أن نواجه أنفسنا بثلاثة أسئلة على جانب كبير من الأهمية: هل يمكن وصف عالم الاجتماع في الوطن العربي، كما يتساءل كل من عبد الباسط عبد المعطي وسمير نعيم بالتبعية للفكر والايديولوجية

---

[2] بوتومور، علم الاجتماع و النقد الاجتماعي (ترجمة محمد الجوهري و آخرون) ، دار المعارف، القاهرة 1981.

ولضغوط تلزمه بفهم المشكلات الاجتماعية بالطريقة الرسمية التي تصاغ بها. وبناء على ذلك فإن الالتزام بدراسة الإنسان والمجتمع يتطلب بالضرورة " نقد الواقع الاجتماعي وإماطة اللثام عما يتحكم في بنائه من قوى، وما يرتبط به من مشكلات »[3].

ورغم ما يبدو من اختلاف حول مفهوم الالتزام، إلا أن رايت ميلز W.MILLS يحدده في ضوء أنواع ثلاثة من القيم : قيمة البحث عن الحقيقة بكل دلالاتها السياسية، وقيمة العقل وقيمة الحرية.

أما بيكر BECKER فيقصره على التعاطف مع الفئات المطحونة وفهم وضعها في البناء الاجتماعي؛ في حين يحاول جولدنر GOULDNER فهم معاناة الطبقة المطحونة من أجل تغيير وضعها في البناء القائم[4].

ولقد دفعت هذه النقطة بعض الدارسين إلى الاهتمام بمختلف الأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية لظاهرة الفقر الحضري، ونجحوا إلى حد كبير في الإفادة من الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع في دراسة هذه الأبعاد واستطاعوا بذلك تقديم إسهامات نظرية شكلت في مجموعها إطارا تصوريا يرتبط بما نسميه: "سوسيولوجيا الفقر الحضري".

---

[3] أحمد زايد: علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية و النقدية، دار المعارف القاهرة 1981ص 297.

[4] المرجع نفسه: ص 321.

في دراسة هذه الأبعاد واستطاعوا بذلك تقديم إسهامات نظرية شكلت في مجموعها إطارا تصوريا يرتبط بما نسميه: "سوسيولوجيا الفقر الحضري".

ومن هذا المنطلق، منطلق الالتزام بفهم معاناة الفقراء، سنخصص هذا الفصل لمناقشة الأبعاد البنائية لسوسيولوجيا الفقر الحضري الذي أصبح يقلق الجالسين في قمة الهرم الاجتماعي في مختلف البلاد النامية. فمنذ سنوات قليلة، أدى الخوف من الراديكالية إلى العناية بمشاكل الطبقة الوسطى من الشباب الذين يجدون أنفسهم بعد ما يتخرجون أعضاء جددا في سوق العمل غير المحمي.

وبنفس الطريقة، هناك اليوم وعي بأن جماهير الفقراء يمكن أن تثور ضد تلك القوى التي تتحمل مسؤولية فقرها. ويبدو أن الاضطرابات السياسية التي تشهدها بعض مدن البلدان النامية، ومواقف الجماعات الفقيرة منها قد دفعت بعض الدارسين إلى تحليل أسباب ومضامين الفقر في مدن البلدان النامية التي يعيش أغلبية سكانها مستويات معيشية غير مقبولة UNACCEPTABLE إذا ما قورنت بالمستوى الذي يعيشه أغلبية سكان أوروبا وأمريكا الشمالية[5].

أولا : سوسيولوجيا الفقر الحضري

[5] Gilbert .A.. and Gugler .J., POVERTY . and developpement : Urbanisation in the third world. 1982, p.81.

الاجتماعية كوسيلة فعالة لتنظيم الاقتصاد وحماية المجتمع مما يسمونه آنذاك " الخطر الشيوعي العالمي INTERNATIONAL COMMUNST THREAT". ومن نافلة القول أن قبول الوظيفية لدولة الرفاه قد ارتبط بالواقع العام وقوة هذه الدولة وتدعيمها للعلوم الاجتماعية التي خصصت لها استثمارات[6] كبيرة لاستخدامها كوسيلة لحل مشاكل المجتمع الصناعي.

وبهذا الخصوص، يشير جولدنر GOULDNER إلى أن ما قامت به السلطات الفيدرالية من تدعيم قوى للعلوم الاجتماعية كان ينطوي على أهمية بالغة بالنسبة للنظرية السوسيولوجية عموما والوظيفة خصوصا، على اعتبار أن هذه السلطات كانت بحاجة ماسة إلى مساعدة العلم الاجتماعي لحل المشاكل الواقعية المتشبعة، وخاصة ما تعلق منها بتصميم وتوجيه السياسات الوطنية، المناطق الحضرية، المؤسسات الصناعية، أجهزة الدولة، وإيجاد الإجابات المناسبة للتساؤلات التالية:

1- كيف تتحسن ظروف المجتمع؟

2- كيف يمكن التقليل من حدة المشاكل الاجتماعية؟

3- كيف يمكن حماية القوة الأمريكية في الخارج ؟

---

[6] تؤكد البيانات الكمية أن مصاريف الحكومة الفيدرالية في أمريكا في بداية العشرينات كانت على النحو التالي:118.000.000 في 62، 139.000.000 في 1963، 20.000.000 في 1964 لا تقتصر هذه الظاهرة على الولايات المتحدة بل تمتد إلى بقية البلدان الأوروبية. ففي بلجيكا مثلا بلغت المصاريف في مجال العلوم الاجتماعية 2,9 مليون دولار في 61 و 4,8 مليون دولار في 1964.

1- كيف تتحسن ظروف المجتمع؟

2- كيف يمكن التقليل من حدة المشاكل الاجتماعية؟

3- كيف يمكن حماية القوة الأمريكية في الخارج ؟

4- ما هي الوسائل الناجعة لتدعيمها وتوسيع نطاقها؟

ومما يدل على تدعيم العلوم الاجتماعية منذ منتصف الخمسينات هو ظهور أعمال كثيرة تهتم بتحليل المشاكل الاجتماعية. ولقد اشتق هذا التدعيم من المساندة الحكومية لهذه العلوم وارتفاع معدلات الاستثمار في مختلف مجالاتها، فضلا عن الصراعات الكبرى التي كانت تدور رحاها حول الحقوق المدنية وحركة الحرب على الفقر WAR ON POVERTY في الستينات. وفي ظل هذه الظروف وفي أقل من عشرية، ظهر فرع متميز يستخدم منظور علم الاجتماع وأدواته التصورية ونظرياته ومناهجه في تناول المشكلات الاجتماعية وتغيير الواقع المعاش. إنها سوسيولوجيا الفقر THE SOCIOLOGY OF POVERTY التي كانت آنذاك تمثل الفرصة الجديدة للنشاط وإضفاء طابع التفسير " المؤسسي الرسمي على علم الاجتماع في الولايات المتحدة[7].

وتذكر الوقائع التاريخية والشواهد الواقعية كيف لعبت انثروبولوجيا الفقر الحضري دورا هاما في تناول بعض الموضوعات مثل الثقافة الفرعية الأثينية في المجتمع الحضري ومجتمع النواصي والأسر الفقيرة

[7]GOULDNER . A.. THE COMING CRISIS OF WESTERN SOCIOLOGY. HEINE MANN. LONDON. 1970. PP.344-351.

لمدن هذه البلدان لا يندهش لظاهرة محدودية مناصب العمل في القطـــاع الرسمي. فالقسم الأكبر من السكان يحصل على قوته اليومي من أنشـــطة اقتصادية واجتماعية اعتبرت ولمدة طويلة أنشطة تافهة، إلـــى أن ظـــهر مفهوم القطاع الحضـــري غـــير الرســـمي THE URBAN INFORMAL SECTOR في كتابات كايت هارت K.HART ســـنة 1971 ليضـــع حـــدا للمناقشات الدائرة حول القطاعين " العصري- التقليدي" فضلا عن أهميته التحليلية في فهم مكونات البناء الاجتماعي الحضري، ووصف وتشخيص مشاكل الفئات الاجتماعية الفقيرة التي تعمل في إطار غير منظم و غـــير محمي[8] وتسكن في غالب الأحيان مناطق متخلفة[9].

ومنذ هذا التاريخ أصبحت أنشطة القطاع الحضري غير الرســـمي التي يمتهنها فقراء المدن محل اهتمام الوكالات الدولية والحكومية، حيـــث ظهرت العديد من الكتب، المقالات، الأوراق البحثية، الوثائق التخطيطيـــة والاقتراحات النظامية لتؤكد الدور الاستيعابي -الإنتاجي- الخدمي لـــهذه الأنشطة. وقد دفع الاهتمام المكثف بهذه الظاهرة الحضرية إلى محاولـــة وضع الأسس الأولى لمدخل متميز يهتم بتخطيط التنمية، وعلم اجتمـــاعي متخصص في دراسات التنمية.

---

[8]MCGREEN, W.P., THIRD WORLD POVERTY, LEXINGTON BOOKS, LONDON. 1980. pp.83.116

[9]LEDURT , R., SOCIOLOGIE URBAINE, PUF, FRANCE, 1979.p.125.

وضع الأسس الأولى لمدخل متميز يهتم بتخطيط التنمية، وعلم اجتماعي متخصص في دراسات التنمية.

وبرغم اختلاف هذين المدخلين إلا أنه من الممكن تحديد اهتماماتهما بصفة عامة. فقد سعى هذان المدخلان إلى تفسير ظاهرة الفقر واقتراح البدائل الممكنة للتخفيف من حدتها، وطرحا بذلك تساؤلات عديدة يتعلق بعضها بتزايد عدد الفقراء وتدهور أوضاعهم، ارتفاع عدد الأحياء المتخلفة ومستويات البطالة، الهجرة الريفية – الحضرية ونقل الفقر الريفي إلى المناطق الحضرية، وتكوين جماعات جديدة من الفقراء، ويتعلق البعض الآخر بانعكاس ذلك كله على الاستقرار الاجتماعي والسياسي للمجتمع.

بيد أن تحديدنا لاهتمامات هذين المدخلين على هذا النحو، يجعلنا في مواجهة نظريات عديدة واتجاهات متباينة تناول كل منها موضوع الفقر بشكل مباشر أو غير مباشر. لذلك سنكتفي هنا بمناقشة سوسيولوجيا الفقر الحضري التي تحاول دراسة وتحليل معاناة الفئات المدينية الدنيا من أجل تغيير وضعها في البناء الاجتماعي، وذلك في سياق تعرية هذا البناء وكشف مظاهر التحكم والاستغلال الكامنة فيه. ولذلك فإننا نميز هنا بين اتجاهين نظريين يكاد ينطلق منهما معظم المهتمين بدراسة فقراء المدن:

أ)الاتجاه الراديكالي ، يسلم أصحاب هذا الاتجاه بأهمية الفعل السياسي والاجتماعي الذي تقوم به الفئات المدينية الدنيا لتغيير الواقع، أو

السياسي، الأمر الذي يؤدي إلى حدوث انتفاضات وتمردات سياسية وأحيانا تظهر جماعات (تنتمي لقاع المدينة) تمارس العنف تعبيرا عن عدائها للمجتمع بمختلف مؤسساته الرسمية، انطلاقا من قناعات تفرضها الظروف المحيطة.

ب) **الاتجاه البنائي الوظيفي**، وينطلق أنصار هذا الاتجاه من مسلمة توازن وتساند أجزاء البناء الحضري، ويركزون في نفس الوقت على أهمية التكامل الاجتماعي الحضري، وإبراز الأساليب والوسائل التي من خلالها يحقق البناء تماسكه وقدرته على الاستمرار في الوجود.

وتتجسد هذه الرؤى في عدد من المداخل التفسيرية المطروحة في هذا الصدد. ومن بين هذه المداخل الاتجاه الذي ينحو إلى اعتبار الفقر دالة من دلائل الثقافة الفرعية. مؤدى ذلك المدخل أن الفقراء يشتركون في العديد من السمات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، وتتدرج هذه السمات على مفصل يبدأ بنسقهم القيمي وينتهي بطريقة حياتهم. وبهذا الصدد، يقر بعض الباحثين أن الفقراء مسؤولون عن وضعهم المتدني الذي يرتبط تغييره بتغيير الفقراء كأفراد.

ولا نستطيع أن نغفل في هذا المجال مناقشة راين واتر RAIN WATER وغيره من علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع لمسألة استخدام المنظور الطبقي في دراسة الثقافة الفرعية. ومن النتائج الهامة التي كشف عنها أن الطبقات الاجتماعية هي التي تحدد وتنمط السلوك الذي

المنظور الطبقي في دراسة الثقافة الفرعية. ومن النتائج الهامة التي كشف عنها أن الطبقات الاجتماعية هي التي تحدد وتنمط السلوك الذي يتعلمه الفرد في بيئته. ويتجلى ذلك واضحا في الشكل (1) الذي يبين علاقة البيئة بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفيزيقية بأنماط السلوك الصادرة عن قاطنيها.

الشكل (1) البيئة والسلوك

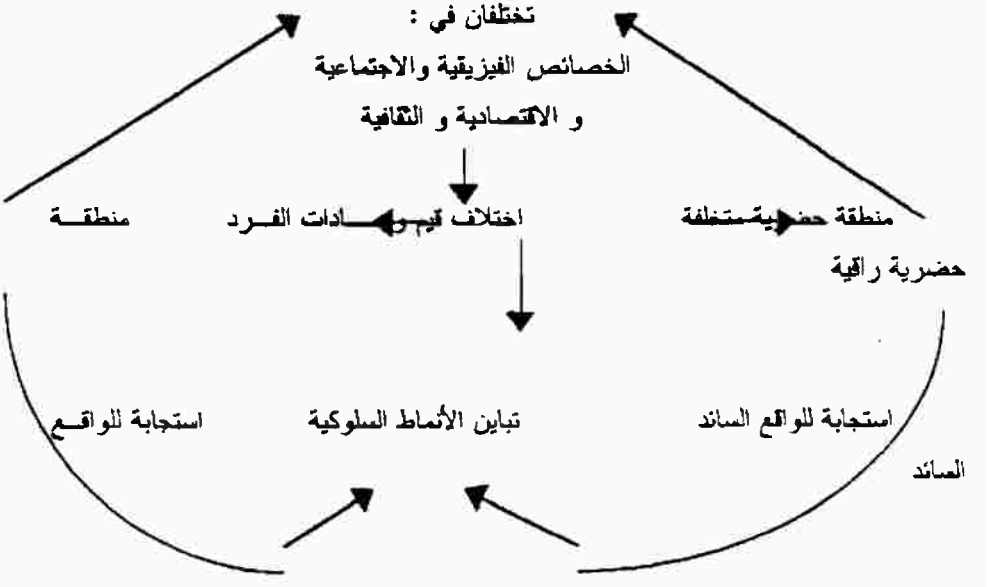

وبرغم تنوع و تعدد إسهامات المهتمين بظاهرة الفقر الحضري إلا أنه يمكن الإشارة هنا إلى اتجاهين آخرين: الأول هو الدراسة

متنوعة متغيرة تضم إسهامات متنوعة في دراسة الفقر. والمثال الـــذي يعبر عن هذا الاتجاه هو الدراسات التي ترجع الواقع " المزري للفقراء إلى وضعهم البنائي في النسق الكلي للمجتمع، وترى أن تغيـــير هـــذا الواقع يرتبط بتغيير النظام الاجتماعي والاقتصادي.

وينطلق الاتجاه النظري الثاني من تصور مختلف إلى حـــد مـــا، جعله يزعم تقديم تفسير متكامل للثقافة الفرعية المدينية الدنيا. فأنصـــار هذه النظرية يرون أن هذه الثقافة تشتمل على عناصر تشترك فيها مـــع الثقافة الكلية كما تتميز بعناصر أخرى عن هذه الثقافة[10].

---

[10] المرجع نفسه : صص 85-90.

الشكل (2) واقع الفقراء

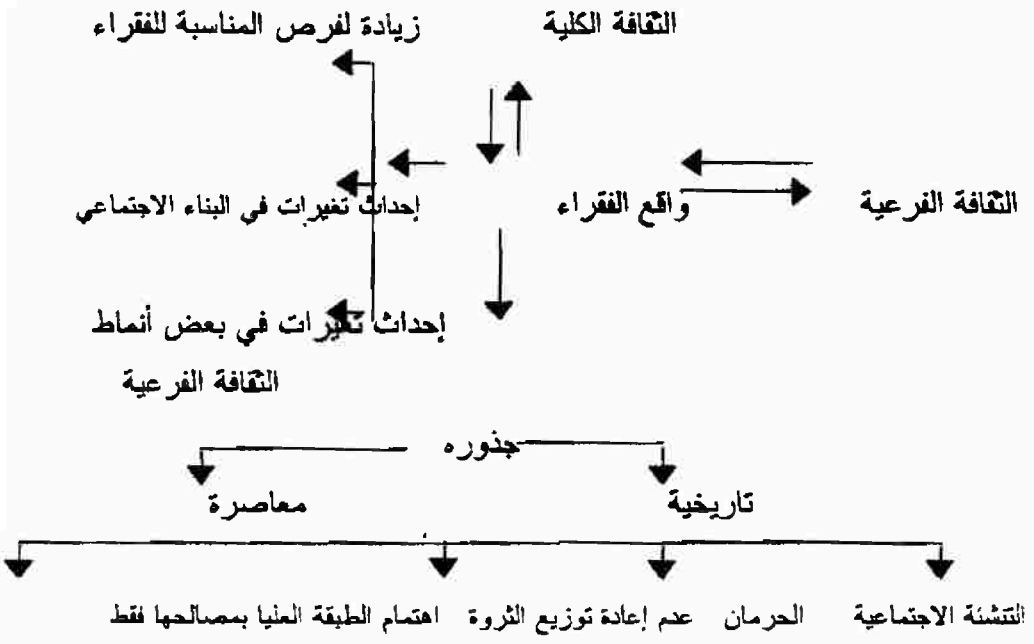

ولقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين اهتماما نظريا وامبريقيا واسع النطاق في مجال سوسيولوجيا الفقر الحضري.

ويرجع هذا الاهتمام إلى عوامل عديدة أهمها الاعتبارات الإنسانية والموضوعية، ضرورات التنمية وتحقيق العدالة الاجتماعية وتحول الفقراء إلى مخلب يقلق الجالسين في قمة الهرم الاجتماعي.

الفئة الاجتماعية المعرضة لشتى الأخطار الاجتماعية. وفي هذا السياق حاول بعض الدارسين تناولها في ضوء التصرفات الفردية لأعضائها لحل مشكلاتهم مركزين على الوحدات الصغرى، ومتجاهلين دور العمليات التي تتم على المستويين الوطني و العالمي في تشكيل ظاهرة الفقر الحضري.

وفي ضوء هذه النقطة يمكننا إدراك مدى قصور النظرية التجزيئية في فهم تعقيدات ورابطات الواقع الاجتماعي. وبإمكاننا تفسير هذا الموقف إذا ما علمنا أن أنصار هذا الاتجاه في دراستهم للفقر ينطلقون من إطار مفاهيمي يتمحور حول ثقافة الفقر والقيم التقليدية. غير أن تناقضات الواقع الامبريقي الحضري أدى إلى ظهور تيارات نظرية ثنائية تفسر ظاهرة الفقر الحضري في ضوء العلاقات المتبادلة بين المدينة والنسق الاجتماعي- الثقافي الشامل التي هي جزء منه. لذلك فإن تركيزها على النمو الحضري دون ربطه بالإطار السياسي الذي يجعلها تتغاضى عن حقيقة الواقع الاجتماعي المعاش، وتقدم تفسيرا لظاهرة الفقر في تجلياتها بعيدا عن سياقها الاجتماعي التاريخي.

وإزاء فشل فكرة الثنائية في تشخيص الأوضاع الواقعية لفقراء الحضر، سلك علماء الاجتماع سبلا شتى، فمنهم من تناولها في سياق نظرية الهامشية و التبعية، ومنهم من تناولها من منظور أنماط الإنتاج

نظرية الهامشية و التبعية، ومنهم من تناولها من منظور أنماط الإنتاج المتعايشة، ومنهم من ركز على متغيرات محددة كتوارث الفقر، امتداد الظلم الاجتماعي، الأمية، الهجرة الريفية الحضرية.... إلخ.

ومهما يكن من أمر الاختلاف بين الدارسين لظاهرة الفقر الحضري، إلا أنه يمكن التمييز بين خمسة اتجاهات نظرية أساسية هي ثقافة الفقر، الهامشية، انثروبولوجيا الفقر، الاتجاه الراديكالي، القطاع الحضري غير الرسمي (انظر الشكل 3).

ودون الخوض في تفاصيل هذه الاتجاهات النظرية التي خصصنا لها الفصلين المواليين، يكفي الإشارة هنا إلى أن المتأمل في التراث السوسيولوجي المعني بالجماعات الأكثر فقرا في مدن البلدان النامية، يجده لا يخلو من بعض المحاولات الجادة التي تحاول إبراز ميكانزمات التحكم والاستغلال الكامنة في البناء الاجتماعي. وأعتقد أن هذا الموقف قد قلل من شعبية الدراسات المتمحورة حول ثقافة الفقر- الإحياء المتخلفة- والمشتقة من النظرية الاجتماعية المحافظة، وفتح المجال واسعا أمام الدارسين للنفاذ إلى قلب الواقع الاجتماعي، و تحديد الأسباب الفعلية لظاهرة الفقر الحضري وما يرتبط بها من مشكلات.

ولقد أدت هذه القضايا بعدد من الدارسين المحدثين إلى محاولة التحقق من صدق بعض القضايا النظرية ذات الارتباط الوثيق بالبناء

شكل (3) الموقف النظري في سوسيولوجيا الفقر الحضري

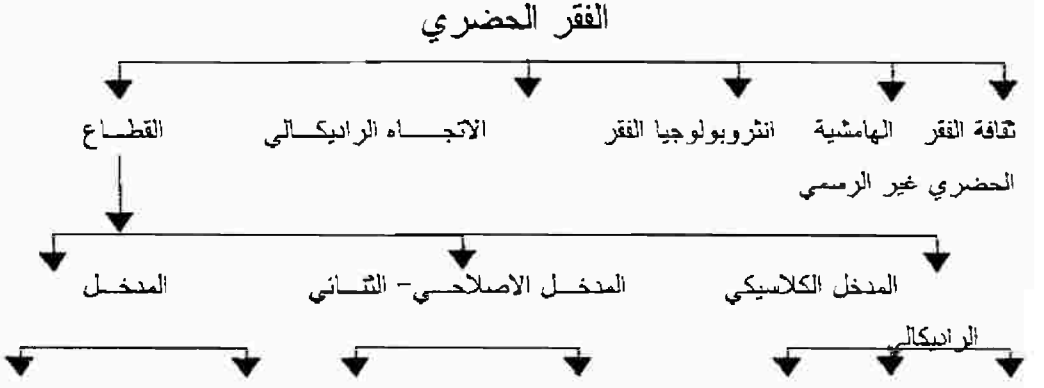

ثانيا: الفقراء العاملون بين الاستقلالية والتبعية

على الرغم من الاهتمام الذي أولاه المتخصصون لمشاكل العمالة بالنسبة لفقراء الحضر في البلدان النامية، إلا أننا في الواقع لا نعرف إلا القليل حول-" كيف ينظم هؤلاء أنفسهم في مكان العمـــل. لمثـــل هـــذه القضايا أهمية كبيرة سواء من الناحية العملية أو السياسية.

القليل حول-" كيف ينظم هؤلاء أنفسهم في مكان العمـــل. لمثـــل هـــذه القضايا أهمية كبيرة سواء من الناحية العملية أو السياسية.

فمن الناحية السياسية تؤكد المعطيات الواقعية أن صياغة سياسات موجهة لمساعدة ذوي الدخل المنخفض تتطلب " معرفة شيء ما حولـــهم" . وفي هذا السياق ، جسد أصحاب الاتجاهات الثنائية الكلاسيكية هـــذه " المعرفة" في وصفهم لفقراء الحضر بأنهم أفراد: غيره ماهرين - غـــير منظمين- غير منتجين- لا ينتمون لأي تنظيم، أما أصحاب الاتجاهـــات الحديثة، فيحاولون التعرف على فرص التقـــدم المـــادي المتاحـــة لـــهم ومعالجة دورهم في التنمية في ظل الأوضاع السائدة[11].

وبهذا الخصوص، أشير إلى أن الدارسين بدأوا يتناولون الأنشـطة التي يمتهنها الفقراء، بالتفسير و التحليل مع بداية سبعينيات هذا القرن. و اتجهت محاولتهم إلى تحديد جملة من المفاهيم لصياغة إطار تصـــوري يلائم دراسة الواقع الجديد. لكن الشيء الملاحظ هو إتمام هذه المحاولات بالبلبلة و الغموض، خاصة مفهوم الاستقلالية الذي لـــم يحـــظ باهتمـــام الباحثين.

بيد أن المتصفح للكتابات المتناثرة عن أنشطة المدينة يدرك علـــى الفور أنه من الناحية النظرية يمكن *استشفاف العناصر المحـــددة لـــهذا

---

[11]SAINCLAIR. S.. URBANISATION AND LABOUR MARKETS IN DEVELOPING COUNTRIES. CROOM HELM. LONDON. 1978.PP.79-87.

الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية. وبسبب وضعه الهامشي يمكن بسهولة تحويله في ظل سيطرة رأس المال إلى منتج لعدد من الحالات الوسيطة، بين الإنتاج السلعي الصغير الخالص الرأسمالي. وفي السياق، حلل ماركس تباينات هذا النوع من الإنتاج الصغير كمراحل في عملية تاريخية وليس كحالات نظرية منفصلة، موضحا في نفس الوقت أن التعديلات في بنائه الداخلي تحدث كنتيجة للطرق التي يصبح بها خاضعا لرأس المال.

فمع انتشار الإنتاج السلعي الصغير تصبح الارتباطات التجارية حاسمة ويتم معها تعبيد الطريق للتدبير النهائي لاستقلالية ورشات العمل الصغيرة بواسطة الرأس المال التجاري حيث يحاول التجار أو الوسطاء إعارة الحرفيين المواد الأولية مقابل السلع المنجزة، الأمر الذي يمكن التاجر من جعل المنتج الصغير تابعا وخاضعا عن طريق التدخل في سوق السلع المنتهية، سوق المواد الأولية و عن طريق جعله مدينا للحصول على مواد الاستهلاك أو وسائل الإنتاج[12].

دون التعمق في تحليل ديناميكات الإنتاج السلعي الصغير يمكن استنتاج ثلاثة محكات أساسية لتحديد استقلالية الوحدات المشكلة لقطاع الفقراء، القطاع الحضري غير الرسمي، وهي:

---

[12]DAS.V., INFORMAL SECTOR IN SOCIALIST ECONOMIE: A RE-EXAMINATION OF THE RELATIONSHIP OF THE INFORMAL SECTOR TO DEVELOPMENT. REGIONAL DEVELOPMENT DIALOGE. Vol.5. N°2.1984.PP.132-134.

دون التعمق في تحليل ديناميكات الإنتاج السلعي الصغير يمكن استنتاج ثلاثة محكات أساسية لتحديد استقلالية الوحدات المشكلة لقطاع الفقراء، القطاع الحضري غير الرسمي، وهي:

1. الملكية،
2. الاستيلاء المباشر على أرباح الوحدات،
3. رقابة وتوجيه عملية اتخاذ القرار.

ولعل أول ما يمكن أن يقال في هذا المجال أن متغير الملكية لوسائل الإنتاج بواسطة المنتج المباشر، وما يصاحب ذلك من تقسيم بسيط للعمل وتخصص ضئيل في نطاق عملية العمل، يقود إلى القول بأن منتجي القطاع غير الرسمي يتمتعون بدرجة نسبية من الاستقلالية في العملية الإنتاجية. فحتى إذا تم الاحتكام إلى المحكات الثلاثة السالفة الذكر، فإن المنتج المشغل ذاتيا في القطاع غير الرسمي رغم كبحه بواسطة ميكانيزمات السوق المتحكمة في الطلب على منتوجه أو خدماته، وعرض عناصر إنتاجه، إلا أنه يظل صحيحا أنه في نطاق هذه المعوقات يتمتع ببعض الاستقلالية في إدارة العملية الإنتاجية. فهو الذي يقرر متى يعمل وأين وكيف؟ بينما العامل المؤجر تتجلى تبعيته الكاملة كمنتج في عمله للآخرين مقابل حصوله على أجر، و في عدم ملكيته لوسائل الإنتاج وعدم المشاركة في اتخاذ القرار، والرقابة الصارمة على

مكونات ومدى ارتباطه بالمحيط الخارجي. ورغم أن هـذه المحـاولات مازالت في بداية الطريق وتتسم بعدم وضوح الرؤية، إلا أنها أضـافت بعدا آخر يعكس بوضوح نمط علاقات الإنتاج السائدة وتمتعها بنوع مـن الاستقلالية عن المحيط الحضري. لكن المشكلة التي تثار هنـا تتعلـق بالبعد السياسي عند دراسة ظاهرة الاستقلالية سواء على مستوى ضيـق أو واسع. من هذا المنظور تصبح هذه الظاهرة لا توجد إلا على نطـاق محدود أو ضيق[13].

وبناء على ما تقدم، يتضح أن الأنشطة غير الرسمية التي يمتهنـها الفقراء لم تنبثق من فراغ، وإنما كان وجودهما انعكاسا لتغلغل الرأسمالية في الأبنية الداخلية، وما أحدثته من خلل في تكويناتها الذاتية وعلاقاتـهما بعضهما ببعض. وعلى الرغم من أن بعض الدارسين قد استخدموا هـذه القضية للتدليل على الارتباط الوثيق بين تبعية القطاع الصناعي وفشـله في استيعاب الزيادات السنوية في عدد القوة العاملة، وظـهور النشـطة غير المحمية[14] كاستجابة للواقع الجديد.

---

[13]MOSER.. C ,.« THE DUAL ECONOMY AND MARGINALITY DEBATE AND THE CONTRIBUTION OF MICRO-ANALYSIS ». DEVELOPMENT AND CHANGE. N°8. 1977.PP.465-489

[14] و في هذا لسياق ، اوضح بريمان BREMAN أن ما سحي الأحذية في باتنة يلجأون إلى تـأجير المكان من وسيط استأجره من السلطات المحلية، فضلا عن تأجير علبة تحوي أدوات التنظيـف، إذا كان يريد أن يتعلم هذه المهنة. وهذا يتطلب دفع نصف ما يحصل عليه للمعلم. ويستمر هذا الـولاء لسنوات عديدة إذا كان المتمهن غير قادر على دفع دينه كاملا.

في استيعاب الزيادات السنوية في عدد القوة العاملة، وظـــهور النشـــطة غير المحمية[14] كاستجابة للواقع الجديد.

ثالثا: التحضر وأزمة الفقراء

انطلقت مناقشات التحضر ومشكلاته، من تصـــورات تاريخيـــة لعملية النمو الحضري، وأخرى واقعية ترتبـــط بـــالظروف السوســـيو-اقتصادية التي تشكل الواقع الامبريقي للمجتمع الحضري المعاصر. فثمة شواهد تشير إلى أن جانبا كبيرا من مشكلات البلدان النامية يعـــود إلـــى التضخم الحضري، الذي سبب وما زال يسبب اختلالا بين عدد ســـكان الحضر ومتطلبات الاقتصاد الحضري من جهة، والـــهياكل الأساســـية للمدن من جهة أخرى[15].

وعلى الرغم من تزايد حدة المشـــاكل الحضريـــة لـــهذه البلـــدان (كمشكلة الإسكان، اتساع نطاق الفقر، النقل البطالة، تمييـــع و تشـــويه

---

[14] و في هذا لسياق ، اوضح بريمان BREMAN أن ما سحي الأحذية في باتنة يلجأون إلى تـأجير المكان من وسيط استأجره من السلطات المحلية، فضلا عن تأجير علبة تحوي أدوات التنظيـف، إذا كان يريد أن يتعلم هذه المهنة. وهذا يتطلب دفع نصف ما يحصل عليه للمعلم. ويستمر هذا الـولاء لسنوات عديدة إذا كان المتمهن غير قادر على دفع دينه كاملا.

[15] السيد الحسيني، المدينة: دراسة في علم الاجتماع الحضري، دار المعـــارف، القـاهرة، 1981، ص87.

ذوبانها في خضم عملية التحضر، وهذا ما جعل بعض الدارسين يصفون تحضر البلدان النامية بأنه تحضر سابق لأوانه أو تحضر بدون تصنيع، وفي هذا السياق تؤكد تقارير الأمم المتحدة أن جوهر مشكلة التحضر يكمن في الأعداد المتزايدة للفقراء من سكان المدن؛ كما أن الانفجار السكاني بالنسبة للفقراء الحضر ينطوي على آثار حاسمة، تؤثر في التقدم الاجتماعي والاقتصادي، بل ويمتد هذا التأثير إلى الاستقرار السياسي في هذه المجتمعات. ويبدو أن هذا النمو من التحضر المصحوب بتضخم حضري- ريفي قد أدى إلى اتساع نطاق الفقر وتدهور الحياة الحضرية وتزايد حدة البؤس والشقاء.

وفي هذا السياق، أعطت بعض دراسات المدينة أهمية كبيرة للبعد الريفي، وحاولت تشخيص أسباب الأزمة في ضوء متغير الهجرة، منطلقة في ذلك من افتراض مؤداه أن التدفق الريفي نحو المدن قد أدى إلى خلق العديد من المشكلات كالبطالة، الفقر، الأحياء المتخلفة...إلخ.

ولقد ترتب عن هذا الطرح إقرار هذه البحوث لجملة من الإجراءات الريفية[16] الواقعية، بغية الحفاظ على تكامل النسيج الحضري وتطوير المناطق الريفية. فدراسة كلكيتا CALCUTTA مثلا صاغت جملة من الإجراءات الريفية لتحقيق هذا الغرض، وهي التوسع في الإنتاج

---

[16] BOSE, A.N., The informal sector in the calcutta metropolithan economy, ILO, pp.125-135,S.V., Jakarta: Urban development and employment, ILO, 1976. Sethuraman

ولقد ترتب عن هذا الطرح إقـــرار هـــذه البحـــوث لجملـــة مـــن الإجراءات الريفية[16] الواقعية، بغية الحفاظ على تكامل النسيج الحضـــوي وتطوير المناطق الريفية. فدراسة **كلكيتا** CALCUTTA مثلا صاغت جملة من الإجراءات الريفية لتحقيق هذا الغرض، وهي التوسع فـــي الإنتـــاج الزراعي، ومده بالوسائل التكنولوجية الملائمـــة، وتحســـين الظـــروف الاجتماعية للسكان، ومدهم بالخدمات الاجتماعية الأساســـية، وتشـــجيع الحرف الريفية وتطويرها لكي تستجيب لاحتياجات القطـــاع الزراعـــي وغيره من الأنشطة الريفية التي ينبغي تنويعها وتشجيعها. ومع أن هنـــاك عوامل اجتماعية- اقتصادية - سياسية أخرى تؤثر في البيئة الحضريـــة، إلا أن دراسة كلكيتا وغيرها من الأبحاث الامبريقية التي أجرتها منظمـــة العمل الدولية تبدو وكأنها ترجع السبب إلى عامل الهجرة، الأمر الـــذي جعلها تدعو في نتائجها إلى ضرورة تخفيض هذا التدفق إلى أدنى حـــد، واعتماد التخطيط الحضري كوسيلة ناجحة لتحقيق هذا الهدف، وتجـــاوز الصعاب التي يعانيها مجتمع المدينة.

وإلى جانب هذا، أوضحت دراسة **جاكارتا** **JAKARTA** أن حاكمـــها كان ينوي خلال السنوات الأخيرة من الستينات غلـــق حـــدود المدينـــة والقبض على كل مهاجر يدخلها. وبالفعل تم سن قوانين رادعة في بدايـــة

---

[16] BOSE. A.N., The informal sector in the calcutta metropolithan economy. ILO. Geneva. 1974. pp1-4

pp.125-135.S.V., Jakarta- Urban development and employment. ILO. 1976.Sethuraman

القطاع الرسمي هو المصدر الأساسي للدخل، إذ يساهم بـ: 78% ، مقابل 22 % بالنسبة للقطاع غير الرسمي.

وتتجلى مساهمة هذا الأخير في تحسين دخول الأسر الفقيرة، واعتباره مصدر دخل رئيسي إلى جانب مساهمته الفعالة في الدخل الإضافي لكثير من عمال الأجر؛ أما فيما يتعلق بالخدمات والسكن، فقد وجدت الدراسة أن 72% من المساكن تمت بطريقة غير رسمية، وتبدو هذه الظاهرة أوضح ما تكون من خلال تحليل مؤشر المشاركة، الذي يشير إلى أن المشاركة في اتخاذ القرار لم تتحقق من خلال الانتخابات السياسية أو المستوى الثقافي، بل عن طريق الانتماء إلى المناطق غير الرسمية التي تقدم للفقراء مجالا واسعا للمساهمة الحقيقية في اتخاذ القرار المحلي. ولفهم نتائج الاستيعاب اهتمت الدراسة أيضا بالدور الذي تلعبه مختلف قطاعات الاقتصاد الحضري في عملية التنمية، حيث يساهم القطاع غير الرسمي في حل مشكلات البطالة والسكن[17].

وهناك محاولات حديثة اتخذت اتجاها مختلفا يركز في دراسة للفقراء العاملين على البعد الشمولي في ضوء التحولات العامة التي تشهدها مجتمعات البلدان النامية وعلى الأخص التناقضات الداخلية و أنساق التبعية القائمة.

---

[17] HANSAN. K.T ,« The urban informal sector as a development issue: poor women and works in Lusaka. Zambia ». Urban anthropology. Vol.9N) N°2. 1988

تلعبه مختلف قطاعات الاقتصاد الحضري في عملية التنمية، حيث يساهم القطاع غير الرسمي في حل مشكلات البطالة والسكن[17].

وهناك محاولات حديثة اتخذت اتجاها مختلفا يركز في دراسة للفقراء العاملين على البعد الشمولي في ضوء التحولات العامة التي تشهدها مجتمعات البلدان النامية وعلى الأخص التناقضات الداخلية و أنساق التبعية القائمة.

وتعد دراسة **جاري** GERRY من أشهر الدراسات التي تنطلق من التصور الماركسي لدراسة الواقع الحضري، حيث حاول الكشف عن الظروف والمعوقات التي يعمل في ظلها صغار المنتجين والفقراء العاملين وكذلك الإمكانيات المتيسرة لهم في المستقبل، وتوصل إلى نتائج ذات أهمية بالغة في إثراء الدراسات الحضرية. إذ يكشف التحليل المتعمق لمعطياته الامبريقية، عن أن نمو العمالة غير الرسمية لا يوحي بأية حال من الأحوال أن الإنتاج الصغير يدخل مرحلة التنمية السريعة والتقدم التكنولوجي، وإنما ترتبط بالظروف الصعبة التي تجعل الفقراء يبحثون عن وسائل عيش تضمن بقاءهم واستمرارهم. كما أن مختلف أصناف الإنتاج الصغير تعاني من التبعية والاستغلال الذي يمارسه

---

17 « The urban informal sector as a development issue: poor women ..HANSAN. K.T and works in Lusaka. Zambia ». Urban anthropology. Vol.9N) N°2. 1988

دخول سوق العمل المنظم. ومع ذلك يظل صحيحا أن هذه الفئات تمثل أقصى صور الاستغلال التي تتعرض لها الطبقة الحضرية الدنيا[19].

ومن الواضح إذن، أن الأبحاث التي تمحورت حول علاقات الإنتاج في المناطق الحضرية قد نظرت إلى علاقة القطاعين: " قطاع الفقراء والقطاع الرسمي" في ضوء المعطيات الامبريقية، نظرة تشاؤمية واصفة إياها بالاستغلالية والتبعية. فبخلاف **ويكس** WEEKS الذي أعطى وزنا كبيرا للنمو التطوري، فإن **بوز** Bose **براينت** Bryant، **بريمان** Breman ، **لوبران** Lebrun، موزر Moser، برباك Birkbeck وغيرهم قد استنتجوا من خلال دراساتهم التي أجروها في مدن مختلفة بعض النتائج المتقاربة، مثل استغلال الفقراء، تدني ظروفهم المادية، تهميشهم وكبحهم بوسائل معلنة أو خفية[20].

من هذا المنطلق يؤكد هؤلاء الباحثون على أنه في غياب التغيرات الراديكالية للأبنية الاجتماعية القائمة، فإن فقراء الحضر سيتضاعفون وتزداد أحوالهم سوءا، خاصة في ظل معدلات النمو السكاني السريع وطوفان الأجرة الريفية- الحضرية وعلاقات التبعية القائمة. لذا ينبغي على حكومات البلدان النامية أن تدرك مدى خطورة الموقف الكامن في

---

[19] MERRICK , T.W.., employment and earnings in the informal sector in Brazil: the case of Belohorizonte » , Journal of developing areas. vol 10. N°.3.1976

[20] « Anew look at some strategies for increasing productive employment in ..Emmerij. L Africa ». International labour review. vol.110. N°3. p74.

المتقاربة، مثل استغلال الفقراء، تدني ظروفهم المادية، تهميشهم وكبحهم بوسائل معلنة أو خفية[20].

من هذا المنطلق يؤكد هؤلاء الباحثون على أنه في غياب التغيرات الراديكالية للأبنية الاجتماعية القائمة، فإن فقراء الحضر سيتضاعفون وتزداد أحوالهم سوءا، خاصة في ظل معدلات النمو السكاني السريع وطوفان الأجرة الريفية- الحضرية وعلاقات التبعية القائمة. لذا ينبغي على حكومات البلدان النامية أن تدرك مدى خطورة الموقف الكامن في عملية التحضر غير الموجه، فإذا لم تعالج مشكلاته في فترة زمنية معينة من تطورها السوسيو- اقتصادي، فإن خطرها يستفحل وتصبح معالجتها صعبة ونتائجها خطيرة[21].

وهذا يقودنا إلى القول بأن تحليل ظاهرة الفقر الحضري مرتبط بنمط التحضر الذي يرتبط هو الآخر بالبناء الاجتماعي للمجتمع، فضلا عن كونه أسلوبا للحياة وعملية مؤثرة في النظم الاجتماعية المكونة للتركيب الاجتماعي. ولعل دراسة التحضر التقليدي الذي تمر به غالبية البلدان النامية، فضلا عن الأنماط الأخرى المتعايشة معه، يعطينا صورة أوضح عن الأوضاع الطبقية لفقراء المدن. فهذا التحضر يتسم بتركيب

---

[20] « Anew look at some strategies for increasing productive employment in ,.Emmerij. L Africa ». International labour review, vol.110. N°3, p74.

[21] « The informal urban sector in latin America » , ,.SOUZA. P.and TOKMAN. V International labour review

وهكذا يبدو واضحا أن تحليل أنماط التحضر(التقليدية، التابعة، الصناعية، السريعة) يتيح لسوسيولوجيا الفقر الحضري فهم وإدراك الأوضاع الطبقية الخاصة بسكان المناطق المتخلفة والفقيرة من المجتمع الحضري. ويتسق ذلك مع اهتمام الدراسة المختلفة سواء بالبعد الاقتصادي (الدخل مثلا) أو بالمتغيرات و العناصر السوسيو-انثروبولوجية كالجار، السكن واختيار القرين في الزواج...إلخ[23].

والراجح بعد ذلك أن الفهم الحقيقي لمشكلات المجتمع الحضري يكمن في إتاحة الفرصة للدارسين الاجتماعيين كي يقوموا بدورهم في كشف ما ينطوي عليه البناء الاجتماعي من قهر واستغلال في إطار من " الالتزام الاجتماعي و" الوعي الجماهيري".

رابعا: الفقراء و تناقضات الواقع الحضري

طغى الاهتمام بالمشكلات الحضرية التفصيلية دون محاولة فهمها في ضوء البناء الاجتماعي من ناحية، وعلاقة البيئة التي تحدث فيها بالريف المحيط بها، والنظام السياسي التي توجد في ظله من ناحية أخرى.

ويكمن هذا الاهتمام بالوحدات الاجتماعية الصغرى في الطابع الامبريقي والتوجيه النظامي للدراسات الاجتماعية الحضرية من طرف

---

[23] المرجع نفسه ، ص •

كشف ما ينطوي عليه البناء الاجتماعي من قهر واستغلال في إطار من " الالتزام الاجتماعي و" الوعي الجماهيري".

رابعا: الفقراء و تناقضات الواقع الحضري

طغى الاهتمام بالمشكلات الحضرية التفصيلية دون محاولة فهمها في ضوء البناء الاجتماعي من ناحية، وعلاقة البيئة التي تحدث فيها بالريف المحيط بها، والنظام السياسي التي توجد في ظله من ناحية أخرى.

ويكمن هذا الاهتمام بالوحدات الاجتماعية الصغرى في الطابع الامبريقي والتوجيه النظامي للدراسات الاجتماعية الحضرية من طرف النخبة المحلية التي تعادي البحث العلمي، وتحاول تغطية الواقع المدير الذي تعيشه الجماهير المطحونة. فهي تحارب بكل ما تملكه من قوة للحيلولة دون جعل البناء الاجتماعي بما ينطوي عليه من مشكلات وتناقضات في متناول المواطن العادي. ومن هنا جاءت دراسات المنظمات العالمية لفقراء الحضر تعبيرا صادقا عن تطلعات أولئك الذين يرغبون في الابتعاد عن تناقضات الواقع الحضري، وتقديم وصفات طبية لأمراض اجتماعية معزولة عن سياقها الاجتماعي التاريخي، وإهمالها لعلاقات التبعية والتمايزات الداخلية. وهذا يتماشى وأهداف المنظمة المتمثلة في إحداث إصلاحات جزئية دون المساس بالنظام

علاوة عن فهمها المشكلات العامة بالطريقة الرسمية التي تصاغ بـــها، وبساطة وغلبة الطابع التفاؤلي على نتائجها[24].

وتدفعنا الاعتبارات السابقة إلى القول، بأن دراســـات المنظمـــات الرسمية لفقراء الحضر في مدن قارات العالم النـــامي، كفقـــراء مدينـــة أبيدجان Abidjan، نيروبي Nairoubi، كلكيتا Calvutta، جاكرتا Jakarta، ليما Lima، ريودي جانيرو Rio de Janiero، جـــاءت انعكاســـا للاســـتراتيجية التنموية للبلد المعني. ويبدو أن العمالة الحضرية هي محور اهتمام هـــذه الدراسات. فبيروش Bairoch قدم حلولا للمشكلة في ضوء الاختيار بيـــن تضخم العمالة الحضرية والعمالة الناقصة الريفية. وبسبب ميلـــــه إلـــى التركيز على المشكلات المحدودة، فإنه يعتقد أن البطالة المفرطـــة فـــي المدن قد زادت من اتساع نطاق الفقر الحضري وتدهور الحياة الحضرية بصورة عامة. وفي هذا السياق طرح العديد من الإجراءات الحضريـــة لمعالجة مشكلة الفقر الحضري كالتقليل من حدة النمو الحضري والهجرة الريفية الحضرية[25].

---

[24] « Interpreting African underdevelopment:Reflections on the ILO Report in . Lexs. C Keneya », African Affairs. vol.72, 1973. pp.419-423.

[25] أنظر .Lubell .H., Urban development and employment : the perspects of culcutta Genava. ILO.1974. And Joshi. H., Abidjan: urban developments and employment in the And Sethurman. S., Jakarta: aurban. developement .IVORYCoast. Geneva. ILO. 1975 and employment. Geneva , ILO1975. and Mc Collum. I. Boyota: Urban development .plans . Geneva ILO. 1975 realities and

تضخم العمالة الحضرية والعمالة الناقصة الريفية. وبسبب ميلـــه إلـــى التركيز على المشكلات المحدودة، فإنه يعتقد أن البطالة المفرطـــة فـــي المدن قد زادت من اتساع نطاق الفقر الحضري وتدهور الحياة الحضرية بصورة عامة. وفي هذا السياق طرح العديد من الإجراءات الحضريـــة لمعالجة مشكلة الفقر الحضري كالتقليل من حدة النمو الحضري والهجرة الريفية الحضرية[25].

وفي ضوء هذه النقطة، يمكننا فهم أســـباب تركـــيز الكثـــير مـــن الدراسات على الطاقة الاستيعابية للمدن، قطـــاع الفقـــراء أو القطـــاع الحضري غير الرسمي، تخطيط النمو الحضري، الإصلاحات الجزئيـــة، التنمية البديلة... إلخ.

وعلى الرغم من الأهمية النظرية لمختلف التيارات المهتمة بظاهرة الفقر، إلا أن كثيرا من الدراسات الامبريقية قد أقرت بأن النمو الحضري لا يمثل سوى وسيلة مبدئية يصعب الاعتماد عليها في فهم ظاهرة الفقر، لأنها تختزل الواقع الحضري وتحوله إلى مجرد قضية ســـكانية فنيـــة، الأمر الذي يتطلب دراستها في ضوء تناقضات الواقع الحضري المحكوم بإطار اجتماعي- ثقافي- سياسي- اقتصادي. " ومعنى ذلك أن التنميـــة

---

[25] انظر Lubell ,H., Urban development and employment : the perspects of culcutta. Genava, ILO,1974. And Joshi, H., Abidjan: urban developments and employment in the And Sethurman, S., Jakarta: aurban. developement .IVORYCoast, Geneva, ILO. 1975 and employment, Geneva , ILO1975. and Mc Collum, I., Boyota: Urban development .plans . Geneva ILO, 1975 realities and

الاعتبار ما طرحه "كريس غاري" في دراسته عن صغار المنتجين والرأسمالية، من أن الظروف المتدهورة للحياة والضعف التدريجي لإمكانيات صغار المنتجين والفقراء العاملين كي يشاركوا في النشاط المنتج، مرتبط على نحو لا ينفصم بهيمنة وسيطرة أسلوب الإنتاج الرأسمالي على الأنماط الإنتاجية المتعايشة معه والتابعة له.

إن استمرارية هذه الأنماط الإنتاجية في وقت واحد، يدعم إنتاج وتوسع أسلوب الإنتاج الرأسمالي، ويسبب لها مشاكل حادة تزيد من تدهور الفئات المدينية الدنيا والفوارق الاجتماعية[26].

[26] « Petty producers and capitalism ». Review of African ,.Lebrun. O.. and Gerry.c political economy. N°3. 1975. PP20-32